شعراء من اشعارهم

عدى بن زيد العبادى

الأستاذ محمود عبد العزيز عرم

— ٥ —

وعلى شعر عدى بن زيد مسحة من حزن دفين . وقد يحار المرء فى تعليل هـذا الحزن والبحث عن أسبابه . ولا يجوز أن نقول إن هذا الحزن قد ألم بعدى بعد أن فسدت عليه الأيام وأوقع به النعمان وحبسه ، لأنا نراه فى شعره من قبل هذا ، من يوم أن كان حرا طليقا ، صديقا للملك ومحبوبا منه ، فهو كان من قبل الوقيعة ومن بعد . وأظنك تذكر الأبيات التى أنشدها عدى النعمان حين خرجا بظاهر الحيرة يستريضان ، والتى وعظه بها ، وتنصر النعمان بسببها ، وتنصر أبناؤه وأهل بيته وبنوا البيع والأديار . إن أكثر شعر عدى موسوم بالأشجان والأحزان ، ولا تجد غير القليل منه طليقا من إسارها . ومن هذا القليل الأبيات التى ذكرتها لك يتغزل فيها عدى بهند ويشبب بها . ومنه أيضا :

بالبيى أوقدى النـارا إن من تهوين قد حارا (١)
رب نار بت أرمقهـا تقضم الهندى والغـارا (٢)
عندها ظبى يؤرثها (٣) ماقد فى الجيد تقصارا (٤)

ويقول فى بعض أخلاق نفسه

ألا ياربمـا عز خليلى فهاونت
ولو شئت على مقد رة منى لعاقبت
ولـكن سرنى أن يه لموا قدرى فأقلعت
ألا . لا فاسألوا الفتيـ ـة ما قالوا وقد قت

ولعل من بواعث هذا الحزن أن عديا قد نشأ فى غير بلاده ،

(١) ضل (٢) الغار : شجر طيب الرائحة
(٣) يوقدها ويكثر حطبها (٤) التقصار : الخنقة

عليهم ، ولا يفل الحديد إلا الحديد

وإن قلبى ليبكى قبل جفنى ، حينما أذكر مصارع آل بيت محمد صلى الله عليه وسلم وأولهم الحسين ، ولكنى أشرك شقيقه الحسن فى دمه ؛ على أن زمام الجيوش كثيرا ما يفلت من إدارة الولاة ، خصوصـا فى الدول التى يعظم حظ أفرادها من الحرية كالدولة العربية . وعلى الجملة فما اجتمع النـاس على إمام ، فإن الخروج عليه جريمة فى نظر الشرع

وليس مما يقبل من فضيلة القاضى أن العباسيين قـاوموا الأمويين فى شروهم ، فإن العباسيين أعظم فى أنفسهم من أن يثأروا أحدا ، وهم — فى نظرهم على الأقل — بيضة الإسلام وذووه . والدليـل على ذلك تمثيلهم ببنى عمومتهم الطالبيين إلى تمثيلهم بالأمويين

* * *

أما بعد ، فإنى أختم كلمتى هذه ، التى طالت رغم أنفى — بما قاله ابن السبكى صاحب جمع الجوامع فى أصول الفقه — باب المقائد — ص ٣٤٧ ج ٢ :

« ونمسك عما جرى بين الصحابة من المنازعات والمحاربات التى قتل بسببها كثير منهم ؛ فتلك دماء طهر الله منها أيدينا ، فلا نلوث بها ألسنتنا . ونرى الكل مأجورين فى ذلك ، لأنه مبنى على الاجتهاد فى مسألة ظنية ، للمصيب فيها أجران على اجتهاده وإصابته ، والمخطئ أجر على اجتهاده ؛ كما يثبت فى حديث الصحيحين أن الحاكم إذا اجتهد فأصاب فله أجران وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر . اه بنصه

فهل لى أن أطلب من حضرات الباحثين فى هذه الموضوعات أن يعملوا بهذه « العقيدة الإسلامية » وفى شؤوننا الحـاضرة ما يغنينا ، عن تبديد تراثنا الخالد على وجه الزمان ؟

عبد الجواد رمضان

فقد كان منزل جده أيوب بن محروف بالحيرة في بني امرئ القيس بن زيد مناة ، فأصاب دما في قومه ، فهرب ولحق بالحيرة

ولعل من بواعثه أن زيد بن أيوب قتل في هذا الدم الذي أصابه أبوه في بني امرئ القيس ، فقد قتله رجل منهم بعد أن تعرف عليه واقتص نسبه ومنزله

ولعل من بواعثه ما كان يراه لدى الملوك — وأنت تعلم أنه عمل لكسرى ، وأنه زار قيصر ، وأنه صديق الملك النعمان — من مآثم وجرائم ودس ومكائد ، اطلع على بعضها وسمع ببعض آخر

ولعل من بواعثه أنه كان رجلا مثقفا أديبا . ومثل هذا يتدبر في أحوال الناس وحوادث الأيام ، ويتبصر فيها ، ويفكر فيمن نزلت بهم . ومثل هذا يكون ذكي القلب مرهف الحس رقيق العاطفة . وأنت تعلم أن الارتحال يكسب الإنسان خبرة ، وتعلم أنه يصقله ويهذبه ، وتعلم أنه يفسح مجال تفكيره ويزيد في معرفته . وأنت تعلم أن عديا كان عالما بالفارسية ، وعالما بالعربية ، فهو قارئ كاتب مطلع على أخبار من تقدموه

ولعل من بواعثه أن ملك الحيرة كان في أيديهم — في يد زيد أبي عدي — قبل المنذر أبي النعمان ، ثم تولاه منهم المنذر . وعلاوة على هذا فإن أهل الحيرة ولوا زيدا أبا عدي على الحيرة وأبقوا اسم الملك للمنذر بعد أن غضبوا عليه وثاروا به . فهم كانوا ملوكا حينا . ثم كانوا شركاء في الملك حينا آخر . ولا يبعد أن يطمح شاب كعدي إلى مثل هذا ، فإذا ما غلب على أمره ، وإذا لم يظفر بما يريد ، وإذا كان ملك الحيرة خالصا للنعمان ، فإن هذا قد يخلف أثرا سيئا في نفس عدي ، يدعه يجتر أفكاره وآماله ، ويجعله ينظر إلى الحياة بمنظار قاتم

يبدو أن حياة عدي لم تكن سهلة ، بل كانت معقدة ، وكانت لا تسير على ما يهوى . ويبدو أنه كان يبذل نشاطا كبيرا ولكن هذا النشاط كانت تعترضه مشقات كثيرة . لقد كان يكافح غير أنه لم يكتب له الظفر ولم تدنه الأيام مما يريد . وتأمل هذه الأبيات :

وعاذلة هبت بليل تلومني
فلما غلت في اللوم ، قلت لها اقصدي (٥)
أعاذل ما أدنى الرشاد من الفتى وأبعده منه إذا لم يسدد (٦)
أعاذل من تكتب له النار يلقها كفاحا. ومن يكتب له الفوز يسعد
أعاذل قد لاقيت ما يزع الفتى
وطابقت في الحجلين مشي القيد (٧)
أعاذل ما يدريك أن منيتي إلى ساعة في اليوم أو في ضحى الغد
بليت وأبليت الرجال وأصبحت
سنون طوال قد أتت قبل مولدي (٨)
فلا أنا بدع من حوادث تعترى
رجالا عرت من بعد بؤسى وأسعد (٩)

تأمل هذه الأبيات فستجد في نفس هذا الشاعر شيئا يريد أن يفصح عنه ، شيئا تعجز الأبيات عن احتماله والإبلاغ عنه ، معنى مخنوقا من طول ما توارت عليه الأيام بالطمن والتنكيل . ثم تأمل هذه الكلمات « الرشاد — النار — الكفاح — الفوز — بليت وأبليت الرجال — فلا أنا بدع من حوادث تعترى » هذه الكلمات القصار دالة على كفاح هذا الرجل في حياته ، وسعيه للفوز والنجح ، ولكنه لقي من الحوادث للعنت والقسوة ، وثنته الأيام عما يريد ويأمل

لقد تربى عدي في أحضان النعمة ، وخالط الأغنياء والموسرين والملوك ، وكتب للملوك وسفر لهم . وكان يمهد مطارح الآمال ، لأنه رأى أباه شريكا في الملك ، بعد أن كان الملك له خالصا . وكان قارئا كاتبا ملما بكثير من الأخبار والأحداث . وكان رقيق الحاشية وذا طبع مهذب أنيق . وكل هذا لم يكن من وسائل الترفيه عنه بل كان من العوامل والبواعث التي تبعث أشجانه وأحزانه ، والتي أضفت على شعره لونا قاتما بائسا

وإذا عرفت أنه فيما بعد قد أصهر إلى النعمان بزواجه من هند ، وأن هذا الزواج لم يكن موفقا للأسباب التي أسلفناها لك ،

(٥) عاذلة : لائمة ، غلت : بالغت ، القصدي : أقلي (٦) يسدد : يوفق
(٧) يزع : يرده عن الغي ، الحجل : القيد ، المطابقة : معنى القيد
(٨) طال عمره وقد أتت السنون بعد مولده كثيرة حتى بلي وتهدم
(٩) بدع : عجيب وغريب ، بؤسى : ج بؤس ، أسعد : ج سعد

وإذا عرفت أن أعداءه لم يهادنوه بل اتخذوا كل ما وقعوا عليه وأولوه تأويلا سيئا للايقاع به . وإذا عرفت أن أعداء عدى أرقعوا الشك فى نفس النعمان حين زعموا أن عديا يرى أنه صديقه وأنه ولاه ماولاه . إذا عرفت هذا كله عرفت أن حياة عدى من قبل أن يغضب عليه النعمان ، ومن بعد ، كانت شائكة مثيرة محرجة ، لا تدع صاحبها يتذوق راحة ولا يعرف قرارا

كل هذا انعكس على شعر عدى ، فخرج حزينا يائسا شاكيا ، وترجم عن نفس لم تجد فى الحياة منافذ لتحقيق الآمال ، فشكت أحوال دنياها فى أبيات حزينة . ولذلك يكرر عدى قوله عن صروف الأيام وأحداثها ، وما توقعه بالإنسان من هم وحزن وقتل للآمال وغبن فى الحقوق . وإذا كان هذا شأنها فعليه أن يرشد نفسه ، وأن يتدبر أفاعيلها ، وألا يغتر بها :

لم أر مثل الفتيان فى غبن(١٠) الـ أيام ينسون ما عواقبها
ينسون إخوانهم ومصرعهم وكيف تمتاقهم(١١) مخالبها
ماذا ترجى النفوس من طلب الـ خير وحب الحياة كاربها (١٢)
يظن أن لن يصيبها منت(١٣) الـ هر وريب (١٤) المنون صائبها

ويقول أيضا :

كنى زاجرا للمرء أيام دهره تروح له بالواعظات وتغتدى

وعدى قد طوف بكثير من البلاد . وعرف من أخبار الروم والفرس والعرب الشئ الكثير . وهو قد قرأ من الكتب الأول ، وامتحن الدنيا حتى تكشفت له عن لون قاتم وقد ذكر فى شعره بعض ما عرف . وأظنك سمعت عن قصة الزباء وجذيمة وقصير الطالب بالثأر . وهذا عدى يقصها علينا فى شعر له ، ويذكر كيف خدعت الزباء جذيمة وأردته ، وكيف قام قصير يطلب بالثأر حتى جدع أنفه بالموسى ، وكيف ساق إليها العيس بما دهاها وأذلها ، وكيف جعل الفرسان فى مسوح الرهبان ، على حين لم تتوقع من قصير هذا أذى ولا ضرا على فرط حذرها من الناس :

أطف لأنفه الموسى قصير ليجدعه ، وكان به ضنينا

فأهواه لمارنه (١٥) ، فأمضى طلاب الوتر جدوها مشينا
وصادفت امرأ لم تخش منه غوائله ، وما أمنت أمينا
إذا ما ارتد منها ارتد صلبا يجر المال والصدر الضغينا

وقد هلك جذيمة وهلكت الزباء . وهكذا الحوادث والمنايا لا يمنعن أحدا من الابتلاء بهن ، وإن كان مجدودا فهن يتركنه إلى حين :

وأبرزها الحوادث والمنايا وأى ممعر لا يبتليها
إذا أمهلن ذا جد(١٦) عظيم عطفن له ولو فى طى حينا
ولم أجد الفتى يلهو بشئ ولو أثرى ، ولو ولد البنينا

واقرأ هذه القصيدة فهى تكشف أيضا عن تشاؤم عدى وشجنه ، وسوء ظنه بالأيام . وتدل على مدى ممرنته بما حوله ومن حوله . وتدل على إلمامه بشؤون كثيرة :

أيها الشامت المعير بالده ر أأنت المبرأ الموفور ؟
أم لديك العهد الوثيق من الأيـ ـام ؟ بل أنت جاهل مغرور
من رأيت المنون خلدن ؟ أم من ذا عليه من أن يضام خفير ؟
أين كسرى ؟ كسرى الملوك أنوشر ـوان ؟ أم أين قبله سابور (١٧) ؟
وبنو الأصفر الكرام ملوك الرـ ـوم ، لم يبق منهم مذكور
وأخو الحضر إذ بناه وإذ دجـ ـلة تجبى إليه والخابور (١٨)
شاده مرمرا ، وجلله كلـ ـسا فللطير فى ذراه وكور
لم يهبه ريب المنون ، فباد الـ ـملك عنه ، فبابه مهجور
وتذكر ريب الخورنق ، إذ أشـ ـرف يوما ، وللهدى تفكير
سره ماله ، وكثرة ما يمـ ـلك والبحر معرضا والسدير(١٩)
فارعوى قلبه ، فقال : وما غبـ ـطة حى إلى الممات يصير
ثم بعد الفلاح ، والملك ، والإمـ ـة(٢٠) ، وارتهم هناك القبور
ثم صاروا كأنهم ورق جف فألوت به الصبا والدبور

(١٠) مارن الأنف مالان منه دون القصبة
(١٦) حظ
(١٧) سابور الجنود وسابور ذو الأكتاف وهما من الأكاسرة
(١٨) اسم نهر كبير فى أرض الجزيرة
(١٩) معرض بمعنى ملمع ، والسدير نهر بالحيرة وقيل بناء لهم
(٢٠) النعمة

(١٠) الأيام تبين الناس فتخدعهم وتخذلهم مثل الذين فى البيع
(١١) تمتاقهم (١٢) غايها (كربة الأيام : غمته)
(١٣) النقة بمعنى أكة عنوت أى شالا (١٤) صرف المنون وحادثه